لغز عيون الرعب

أُدعى (جيلان الخولى) , مربية أطفال .. متزوجة منذ سبعة أعوام , ومع ذلك لم يشأ الله أن أرزق بأولاد ..

تعبت أنا و زوجي من محاولات الإنجاب و أرهقنا الأمل , و المواعيد الكثيرة في عيادات الخصوبة و مصاريفها الباهظة .. و في النهاية إستسلمنا لأمر الله .

لكن حياتنا تغيرت منذ ما يقرب العام ، عندما وقعت لي حادثة تسبّبت في تلف قرنية عينايّ , فأصبحت أعيش في ظلامٍ دائم .

و في يومٍ من الأيام ، أخبرنا الطبيب أن هناك أملاً بأن أرى من جديد , في حال تبرّع لي شخصٌ ما بقرنيته .. و ما إن سمعت الخبر , حتى أشرق في قلبي شمس الأمل من جديد .

و مرّت الأيام دون جديد يُذكر .. و بدأت أفقد الأمل مجدداً , و ضاقت بي الدنيا بما رحُبت ، خصوصاً و انا اشعر بتضحيات زوجي الكثيرة و حبّه الكبير لي ، الذّي دفعه إلى تحمّل ما لا يطيق في سبيل التخفيف عنّي.

أيام قليلة تفصلنا عن نهاية العام.. و هآقد بدأت أعتاد الظلام ، و أعتمد حاسة اللمس في مختلف شؤون حياتي ، حتى حفظت مكان كل شيءٍ في المنزل .. و لك أن تتخيل مدى التعاسة التى عشتها في أول أيامي المظلمة.

-جيلان !! لديّ مفاجأة سارة لك

إستطعتُ تمييز نبرة السعادة في صوت زوجي ، فقلت له و أنا أرسم إبتسامة على ثغري:

-و ماهي , حبيبي ؟

فأحسّست بأنفاسه تقترب مني , و سمعته يقول :

-لقد اتصل بي الطبيب (مجدي) وأخبرنى بأنهم وجدوا متبرّعاً ..و بأنك ستدخلين غرفة العمليات غداً , و إن شاء الله سترين النور مرة أخرى!!

دقّ قلبي بعنف بين ضلوعي , و سألته و أنا أرفع حاجبايّ :

-و كيف وجدوا المتبرّع ؟

تخيّلت ملامح زوجي , و هو يردّ على سؤالي:

-في الحقيقة .. المتبرّع شخصٌ فارق الحياة في حادثة .. و قد وافق أخوه على إقتراح الدكتور (مجدي) بالتبرّع بقرنية شقيقه لكِ , و من دون مقابل ايضاً!

و هنا أحسستُ بالقلق ينهش قلبي , و كأنه وحشٌ كاسر... فجلس زوجي بجانبي طوال الليل يحدّثني , و يقنعني بأن الأمر عادي , و ربما يكون فيه الخير.

و بعد ايام .. دخلت غرفة العمليات و لم أعلم كيف جرت العملية ، كل ما أعلمه أنني إستفقتُ في غرفتي بالمشفى . ثم مرّت الليالي , الى ان حان موعد إزالة الضمّادة الطبّية عن عينيّ.

و كان قلبي يدقّ بعنف , حتى شعرت بأن من حولي يسمعون دقّاته المزعجة .. و فتحت عينيّ بهدوء ، الاّ ان الصورة كانت غير واضحة ! و ترافق ذلك مع ألمٍ فظيع , احسسّت حينها و كأن رأسي سينفجر ..!

فسألني الطبيب عن الأمر , فأخبرته بأمر الرؤيا المشوشة و الصداع ..فقال لي : لا تقلقي , فهذا شيءٌ طبيعي ..و مع الأيام ستتحسّن الرؤيا , بعد ان يلتحمّ العصب بالقرنية جيداً ..و مع مداومتك على اخذ العلاج , سيختفي هذا الصداع.

كان حديث الطبيب صحيحاً .. لأن شيئاً فشيئا بدأت الرؤيا تتضّح , كما إختفى الصداع اخيراً ..و بدأت أعتمد على نفسي في القيام ببعض الأعمال و المهام , التي كنت قد دأبت سابقاً على الإستعانة بغيري لإتمامها.. و كنت سعيدة جداً بشفائي , الى ان حدث ذلك الأمر !

كنت حينها جالسة أشاهد التلفاز ، و كانت الرؤيا غير واضحة , لكني كنت أسلّي نفسي حتى عودة زوجي من عمله ..

فلاحظت فجأة ! شخصاً ما أسوداً يقف في أحد الأركان بصمت , فظننته زوجي .. فتعجبت لأمره ! لمَ يقف هناك بجمود ؟! و كيف دخل اصلاً إلى الشقة , من دون أن أشعر به ؟

حاولت أن أدقّق النظر، لكن الصورة كانت مشوّشة .. ناديت عليه فلم يجيبني , بل بقيّ صامتاً !

فكرّرت ندائي .. وعندما لم القى جواباً , بدأ الخوف يتسلّل الى قلبي .. نهضت وأخذت أقترب من هذا الشخص ...ثم وقفت بالقرب منه , وبالرغم من ذلك لم أستطيع تميزه بعد !

و هنا إهتزت كل خلّية بداخلي رعباً , و سألت نفسي :
-إذا لم يكن هذا زوجي , فمن يكون ؟!

و كان الموقف مرعباً و بعيداً عن كل ما توقعته .. و رغم ما كان يتملّكني من هلع و خوف لم أختبره يوماً .. قرّرت قراراً خطيراً يتعارض مع كل مخاوفي , و مدّت يديّ لأتلمّسه و....جيلان و هنا سمعت صوت زوجي من خلفي !

فنظرت نحوه و قلت , و أنا أشير إلى الشخص الغريب:
-نديم ! أهذا أنت ؟ .. اذاً من الذي هنا ؟!

لكن المفاجأة أنني عندما عاودت النظر نحوه , لم يكن هناك أحد !فشرحت الأمر لزوجي , و لكن ردّه كان : بأنها مجرّد خيالات لا أكثر .. و قد استطاع أقناعني بذلك ايضاً ..

مرّ يومان على الحادثة ، و الرؤيا مازالت لم تتضّح كثيراً .. و بينما أنا أقف أمام المرآه أصفّف شعري , إذّ سقطت مني الفرشاة فجأة .. و ما إن إنحنيت لألتقطها و طالعت صورتي مرة أخرى , حتى رأيت وجه رجلٌ ، عجزت عن تبيّن ملامحه ، لكنه كان إنعكاساً لصورتي في المرآة!

و كانت ملامحه شديدة القساوة ، تلقي الرعب في كل من يراه , بعيونه المتجهّمة و حاجبيه الغليظين و شعره الأشعث..

و على الفور !! إنطلقت من حنجرتي صرخةً مدوّية , دخل على إثرها زوجى ملهوفاً.. فأخبرته بالأمر , و لكنه حاول طمأنتي من جديد , بينما كانت دموعي تسيل على خدي ، و جسدي يرتجف من الفزع .. فأخذني فى حضنه بحنان وربت عليّ , و حاول أن يزيح عنّي توتري .. و ظلّ هكذا , الى ان استغرقت في النوم.

و إستيقظت بعد قليل , لأجد نفسي وحيدة بالشقة ! فناديت على زوجي , لكن لا مجيب .. فظننت أنه خرج ليحضر شيئاً ما , و سيعود قريباً

جلست على الأريكة و طال إنتظاري .. و مرّت الدقائق بثقلٍ رهيب و مملّ , و مع كل دقيقة أحسّ و كأني أغرق اكثر في افكاري السوداء ..

فقرّرت أن أتصل به , لأطمئن عليه .. و صحيح أنني لا أرى جيداً , لكني سأحاول بما ان رقمه هو أول رقم مخزّن في هاتفي المحمول... لكن أين وضعته ؟

و أخذت أبحث عن جوالي , حتى تذكّرت بأنني تركته على طاولة المطبخ.. فذهبتُ و مددّت يديّ لأبحث عنه , لكني كنت أصطدم في كل مرة ببعض الأغراض.

و فجأة ! سقط كوب من الزجاج و تحطّم على الأرضية , فإنتفضت أوصالي من الرعب ، و بلغ مني الضيق أشدّه , فأخذت ألعن حظّي البائس.

ثم أمسكت أناملٌ مرتعشة كفّي ، فظننت بأن زوجي قد عاد أخيراً .. و نظرت بسرعة إلى صاحبها ، فتبيّنت بصعوبة فتاةٌ جميلة في ريعان الشباب ! و هي تضع يدها الأخرى على رقبتها , و كأنها تحاول أن تتملّص من شيءٍ ما !

و قد لاحظت نظرة الرعب على وجهها و كأنها تختنق ، و لم تلبث أن وقعت على الأرض.. و قد ألجمتني المفاجأة ! و أخذ قلبي يدقّ بشدّة ..

حاولت الهرب , لكني لاحظت الفتاة تشير لي و كأنها تحاول ان تقول شيئاً ! فقد كانت شفتيها تتحركان , دون أن يصدر عنهما أيّ صوت .. و كأنه مشهدٌ صامت يعبر عن : استماتتها في محاولة التملّص من شيءٍ خفيّ يخنقها !

مرّت الثواني و هي على هذه الحال , قبل ان يرتخي جسمها , و تنتفض إنتفاضتها الأخيرة .. ثم سكن جسدها فجأة !

تراجعت إلى الخلف بحذر , إلى أن إصطدمت بجسدٍ آخر .. نظرت إليه بسرعة فوجدته زوجي يبتسم لي ، ففقدت الوعيّ بعدما استبدّ بي الرعب.

و في المنام .. شاهدت نفسي و أنا أسير على بحيرة من الدماء , دون ان تخوص قدمايّ فيه , بل كنت أسير فوق صفحة البحيرة ..و انا أرى أناساً ينادون عليّ .. و كنت بدوري أنظر إليهم بإطمئنان , و كأني أعرفهم!

كما رأيت غسقاً من بعيد , فإتجهت ناحيته ..و كان ثوبي يتطاير من خلفي , و كأن الرياح تتلاعب به..

و أثناء سيري , اقتربت مني نفس الفتاة التى رأيتها تموت , و لكن هذه المرة سمعت صوتها و هي تهمس لي:

-أرجوكِ !! لا تتركينا هكذا... نريد أن نرتاح.

وهنا حدث شيءٌ غريب.. فقد سمعت صوت قطارٍ ما ..لكن الفتاة لم تمهلني لأتبيّن ما يحدث حولي , بل قالت لي قبل أن تتلاشى , و يضيع صوتها في العدم:

-أخبريهم عن مكاننا!!

فاستيقظت فزعة , و وجدت زوجي بجواري .. فقال و هو ينظر إلى عينيّ: حبيبتي , أنا قلقٌ عليكِ.. سنذهب غداً إلى الطبيب .. يبدو أن العملية اتعبت أعصابك!

وفي اليوم التالي .. ذهبنا إلى الطبيب فوصف لي بعض المهدئات , ونصحني بأن أرفّه عن نفسي .. ففضلت أن أزور أخي (معتز) بالأسكندرية ..

وأوصلني زوجي الى هناك , وأراد البقاء معي .. لكني احببت البقاء لوحدي , خصوصاً بعد ذهاب أخي العازب إلى عمله.

وهناك , عادت لي الكوابيس .. وصارت بعض احلامي تتكرّر بأشكالٍ مختلفة ..وبدأت أعصابي تنهار أكثر , وأصبح الأمر مخيفاً حقاً .. فأخبرت أخي عن الأمر ، فبحث كثيراً عن موضوع الأشباح على شبكة الأنترنت ..

وفي النهاية أخبرني أنه ربما حدث أمرٌ ما بسبب العملية , جعلني أرى أشياءً لا يراها الآخرون ، خاصة و أنها ظاهرة قد إختبرها العديدون في مختلف أنحاء العالم ، و بأن عليّ ان أتكيّف مع هذه الغرائب..

ورغم محاولاتي العديدة للتأقلم مع وضعي الجديد إلا أنني فشلت , لأن أعصابي أضعف من ذلك.. فأنا مجرد أنثى رقيقة.

اما في هذه الأيام , فقد اصبحت رؤيتي أوضح بكثير , و صرت أميّز الأشكال بوضوحٍ تام .. لكن ظلّت تلك الأمور الغريبة تحيط بي !..ففي كل مرة كنت ارى نفس الفتاة التي تقتل أمامي بواسطة السلاح الخفيّ , الذي لا استطيع ان أراه و كأنه محجوباً عني لسببٍ ما..

لكني كنت أرى الدماء و هي تنزف منها و هي تصرخ بفزع , الا انني كالعادة لا اسمع صوتها .. ثم تنتفض , لتموت من جديد !

لكن مهلاً ! تذكّرت!!

هناك شيئاً مهم لاحظته مع الضحيّة الأخيرة .. فصورتي لم تكن منعكسة في عينيها , بل كانت صورة الرجل البشع الذي رأيته سابقاً في المرآة..

وهنا تراجعت إلى الخلف , حتى سقطت على ظهري.

ثم أسرعت نحو الهاتف ... نديم !! تعال حالاً

وقد تحدّثت مع زوجي عن الأمر .. وبعد ان استطعت اقناعه اخيراً بفكرتي المجنونة التي خطرت لي , ركبنا السيارة وإتجهنا لعيادة طبيبي ..

وما إن قابلته , حتى سألته : أريد أن أعرف كل شيء عن المتبرّع ؟

فأعطانا عنوان أخو الميت , فذهبنا إليه ..و ما إن رأيت الرجل حتى إنقبض قلبي , لأنه يشبه تقريباً رجل المرآة !

وجلسنا معه وتحدّثنا عن أخيه المتوفي .. فأعلمنا بأنه كان شخصاً عادياً يعمل في إحدى محطات القطار ، وهو لم يتزوج قطّ , لأنه كان يعاني من تشوّه خلقي في جسده , ولهذا كان يرفضه الجميع .. وبأن سبب التشوّه هو : ان القطار صدم جزءاً من جسده , أثناء محاولته تجاوز السكّة ..

فطلبت منه صورة لأخيه المتبرّع ..وما ان رأيت صورته , حتى صرخت إنه هو!!!

وواصلت القول بحماسةٍ أكبر , بعد ان شعرت بأنني على وشك حلّ هذا اللغز : وفي ايّة محطّة كان يعمل اخوك ؟

وبعد قليل , وصلت مع زوجي الى المحطة .. وهناك .. جالت عينايّ يُمنةً و يسارا في ارجاء المكان كالمجنونة , وانا أبحث عن شيءٍ لا اعرفه! واذّ بفكرةٍ تخطر بالي ...

فسألت عن مخزن القطارات , فدلّونا عليه .

كان المكان مظلماً إلاّ من بضعة أنوارٍ خافتة .. وكانت هناك رائحة عفنة تعمّ أرجاءه !.. بحثت عن مصدر الرائحة التي اوصلتني إلى ركنٍ بعيدٍ مظلم .

أشعلت كشّاف هاتفي المحمول ، وصارت الرائحة تزداد سوءاً كلما دنوت اكثر ! .. ثم لاحظت بأن الأرض غير مستوية , وكأن هناك حفرةً قديمة تم طمرها ..

فطلبت من زوجي أن ينبشها..

وما هي إلا دقائق , حتى صدق ظنّي ! فقد كانت هناك جثثاً تحت الأرضية , و بذلك فكّ اللغز اخيراً .

عند حضور الشرطة ..عرفنا أنه كان يستغلّ طيبة الفتيات ويستدرجهنّ إلى مخزن القطارات , بحجّة حجز مقعداً لهنّ في الدرجة الأولى .. ثم كان يغتصبهنّ و يقتلهنّ , ويدفنهنّ تحت المخزن

لكن ما أثار حيرة الشرطة , هو كيف كان يقضي عليهنّ ببنيته المشوّهة و الضعيفة ؟ !

وقد تم التحقيق مع الجميع , حتى مع أخيه الذي كان يشبه هيئته إلى حدٍ ما .. و إنتهت القضية , و إرتاح أهالي الضحايا ..

ومنذ ذلك اليوم , لم أعد أرى تلك المشاهد المرعبة مرة أخرى.. كما تحقّق حلمي بالأمومة و حملت أخيراً , و عمّت السعادة منزلنا الصغير .

وفي احد الأيام ..

دخلت إلى المطبخ لأعدّ الغداء , و كنت وحدي بالمنزل بإنتظار عودة نديم

أدرت مفتاح الموقد و أمسكت القدّاحة .. ثم فجأة ! توقف كل شيءٍ من حولي , و كأني في مشهدٍ صامت ..

و أخذت أستعيد كل ما مرّ عليّ من احداث و ذكريات ..و صرت اسأل نفسي: هل للعيون ذاكرة يا ترى ؟ !

فكّرت كثيراً , لكني لم أجد الأجابة ... و فجأة !! تذكّرت شيئاً ما , جعلني أصرخ بهستريا : لم يكن هو!!!!!

و دون أن أنتبه إلى الأمر ، أشعلت القدّاحة , و لم ألاحظ رائحة الغاز التي إنتشرت في المكان , فقد كنت غارقة في التفكير و...ما حدث يومها أعادني إلى الظلام مرة أخرى.

وقف الشاب في المحطة ، فإسترعت إنتباهه فتاةً حائرة في أمرها فإقترب منها و قال لها بأدب : هل رأيت شقيقي ؟

فاستفسرت عنه , فأجابها : إنه يعمل بالمحطة منذ زمنٍ بعيد ... ثم اخذ يصفّ لها طيبة قلب شقيقه و كرمه , و كيف مكنّه من ركوب القطار بلا مقابل , و متى ما أراد ذلك

فلمعت عينا الفتاة , و قالت له : وهل يفعل هذا معك وحدك ؟

-لا بالتأكيد !! بل يفعل ذلك كمعروف لبعض الأقارب و الأصدقاء , و حتى الغرباء ممن يستحقون المساعدة.

و بعد اخذٍ و ردّ , سارت الفتاة معه و هي تطلق الضحكات , ممنّية نفسها برحلةٍ مجانية ..

بينما نظر إليها الشاب و رسم على شفتيه إبتسامةٍ شيطانية , و كأن لسان حاله يقول: نعم !! ستكون رحلةً مجانية ...رحلة .. بلا عودة.